المحاضرة السادسة:الفحولة

من القضايا التي تناولها النقاد ، قضية الفحولة و هو مصطلح ظهر في بدايات النقد العربي القديم فيا ترى ماذا نقصد بالفحولة و ما إرهاصاتها الأولى و ما مقاييسها وشروطها ؟

لغة : جاء في المعاجم ، الفحل : هو الذكر من كل حيوان ، و جمعه فحول و فحولة و فحال ... و الفحيل فحل الإبل إذا كان كريما منجبا ، و العرب تسمي سهيلا(نجم من النجوم) فحلا تشبيها له بفحل الإبل لاعتزاله عن النجوم و عظمه. و الفحل ذكر النخل و استفحل أمر العدو ، إذ قوي و اشتد. فالفحل لغة يتصف بالشدة و القوة و هي تختص بالذكر دون الأنثى.

كما نشير إلى أن المرأة قد توصف بالفحلة و قد جاء في لسان العرب ، وامرأة فحلة سليطة اللسان و هذا يعطيها نوعا من الغلبة و السيطرة .

اصطلاحا : فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم مثل جرير و الفرزدق و أشباههما ، و كل من عارض شاعر فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة سمي فحلا لأنه عارض امرؤ القيس و تغلب عليه ، وهكذا فقد انتقلت هذه الصفة أو هذا المصطلح من دلالاته على الذكر من كل حيوان والنجم سهيل وذكر النخل إلى ميدان الشعر والشعراء فوصفت بها طائفة من الشعراء يمتازون بالإبداع الشعري والموهبة الفطرية وتعدى المصطلح إلى الرواة فوصفوا بالفحول ، وهذا ما جاء في رواية الأصمعي عن **رؤبة** حين سئل عن الفحولة ، قال : هم الرواة لأن كثرة روايتهم للأشعار تقوي قريحتهم .

الأصمعي:

وقد ورد هذا المصطلح أول ما ورد عند الأصمعي وهذا لما سأله تلميذه **أبو حاتم** عن معنى الفحل فردّ (إن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق) .(الحقاق مفردها حق:ما دخل من الإبل في السنة الرابعة).

كما يعود هذا المصطلح إلى طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية ، فالفحل جملا كان أو فرسا يتميز بما يناقض صفة اللين التي يكرهها الأصمعي في الشاعر وبالفحولة يتفوق على ما عداه ، وهذا ما جعل الشعراء ينقسمون عند الأصمعي إلى فحول وغير فحول : [ولا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه الألفاظ وأول ذلك أن يعلم العروض ؛ ليكون له ميزانا على قوله والنحو ليصلح

به لسانه وليقيم به إعرابه والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم] .

وهكذا فالفحولة عند الأصمعي طاقة شعرية هائلة، وجودة في السبك وسيطرة على المعاني ، وقد سئل الأصمعي عن مجموعة من الشعراء فصنفهم إلى فحول وغير فحول .

فقد أورد صاحب الموشح آراء الأصمعي حول الشعراء ، قال أبو حاتم : (سألت الأصمعي عن الأعشى أفحل هو ؟ ، قال : لا ، ليس بفحل ، وسألته عن عدي بن زيد أفحل هو ؟ ، قال : ليس بفحل ولا أنثى ، وسألته عن أبي دؤاد فقال : صالح ولم يقل إنه فحل ، وسألته عن المهلهل ، قال : ليس بفحل ، ولو قال مثل قوله : [أليلتنا بذي حسم أنيري] خمس قصائد لكان أفحلهم ، وسألته عن عروة بن الورد قال : شاعر كريم وليس بفحل ، قلت : فالحويدرة ؟ ، قال : لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته (العينية) كان فحلا ، قلت فابن أحمر الباهلي ؟ قال ليس بفحل ولكنه دون هؤلاء الفحول و فوق طبقته ، قلت فكعب بن جعيل ، قال : أظنه من الفحول ولا أستيقنه ، قلت : فحاتم الطائي ؟ قال : حاتم إنما يعدّ فيما يكرّم ولم يقل إنه فحل في شعره ، قلت : فكعب بن سعد الغنوي ؟ قال : ليس من الفحول إلا في المرثية ، فإنه ليس في الدنيا مثلها ، وسألته عن خفاف بن ندبة وعنترة والزبرقان بن بدر ؟ فقال : هؤلاء أشعر الفرسان ، قلت : فالسليك بن السلكة ؟ قال : ليس من الفحول ولا من الفرسان ولكنه من الذين يغيرون فيعدون على أرجلهم فيختلسون ....)

من خلال هذا النص نفهم أن الفحولة صفة عزيزة تعني التفوق في كل شيء والتفرد فيه ، وهذا يتطلب في نظر الأصمعي شروطا كالآتي :

-غلبة صفة الشعر على كل الصفات الأخرى ، و هذه الصفة تستدعي عددا من القصائد التي تكفل لصاحبها التفرد،و هذا العدد غير محدد،فهو قصيدة أو ست أو عشرين،و هذه انطباعات خاطفة غير مؤسسة على منهج علمي معين، لا يمكن أن تكون دراسة نقدية مبنية على أسس صحيحة .

وهكذا نرى الأصمعي بذوقه الفطري يركز على صفة القوة الفطرية التي يصدر عنها الشعر بعيدا عن الليونة المتصلة بالأخلاق والخير والصلاح، كحكمه على أبي دؤاد وكذا لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت ، فقد جاء في الموشح أن أبا حاتم سأل الأصمعي عن لبيد فقال : شعر لبيد كأنه طيلسان طبري يعني أنه جيد الصنعة ليس له حلاوة ، فقلت

له : أفحل هو ؟ قال : ليس بفحل ، وقال لي مرة : رجل صالح .

كما يذكر الأصمعي أن شعر حسان بن ثابت عند مجيء الإسلام لان لأنه دخل في باب الخير و ذلك في قوله : طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية و الإسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير (من مراثي النبي صلي الله عليه و سلم و حمزة و جعفر رضوان الله عليهما و غيرهم لان ، و طريق

الشعر في نظره هو طريق الفحول مثل : امرؤ القيس ، و زهير و النابغة.ويدخل في وصف الديار و الرحل و الهجاء والمديح والتشبب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان .

هذا ونجد الأصمعي قد قسم الشعراء حسب الفحولة إلى أقسام :

1-الفحول :مثل/ امرئ القيس ، النابغة ، زهير 2-الفرسان :مثل/ عنترة ، الزبرقان .

3-الكرماء : مثل /حاتم الطائي . 4 -العداؤون :مثل/ السليك بن السلكة ،الشنفرى

5-الصالحون :مثل/ أبي دؤاد ، لبيد بن ربيعة . 6 -الفصحاء .

ابن سلام الجمحي:

ويأتي **ابن سلام** فيأخذ عن الأصمعي معيار الفحولة ليؤسس عليه معيار الطبقة ، وقد جاء هذا في حديثه عن منهجه في الكتاب يقول : [ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ، فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء] كما قصر بحثه على أربعين شاعرا من الجاهلية وأربعين من الإسلام في كل طبقة أربعة شعراء .

وقد اتخذ ابن سلام مبادئ لتقسيم هؤلاء الشعراء إلى طبقات :

المبدأ 01 : الفحولة أو الجودة ، فكل من ذكرهم في كتابه فحول وهنا قد وسّع فكرة الأصمعي ، فالأصمعي قسّم الشعراء إلى فحول وغير فحول لكن ابن سلام قال إنهم فحول ولكن الفحولة تتفاوت ، فالأعشى يعد في الطبقة الأولى ، وكعب بن زهير وضعه في الطبقة الثانية والأسود بن يعفر شاعر فحل (عند الأصمعي ليس بفحل يشبه الفحول) .

المبدأ 02 : هو كثرة شعر الشاعر وهذا ما اعتمده الأصمعي من قبل ، فالفحولة لا تتحقق بقصيدة أو عدد قليل من القصائد ولابد من اعتبار الكم في إلحاق الشاعر بالفحول ، ثم تحدث عن الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية فقال : (أربعة رهط مُحكمون مقلّون في أشعارهم) فذاك الذي أخرهم ، وإذا سئل ابن سلام كيف تقدّم طرفة وعبيد بن الأبرص ولم يصحّ لهما إلا عشر قصائد ، فإنه يفترض أن ما وصلا إليه من الشهرة والتقدم يوجب أن يكون لهما شعر كثير إلا أن أكثره ضاع ، وضياعه لا يحرمهما التقديم .

المبدأ 03 : اللين ، تحدث ابن سلام عن اللين ، وذكر تعهّر الشعراء دون أن يربط هذا التعهر بقوة الشعر ، ولكنه اتخذ اللين أداة للتوقف في أخذ الشعر ، وظهر ذلك في حديثه عن شعراء قريش فقال : وأشعار قريش أشعار فيها اللين ، فتشكل بعض الأشكال ولكنه لم يقرنه بالخير كما فعل الأصمعي .